

الارتحال المعرفي لمفهوم البنية عند الزواوي بغورة؛ من صلابة اليقين الصوري إلى متاهة التأويل
 The Epistemological Shifts of the Concept of Structure in Zouaoui
 Beghouira's Works: From the Rigidity of Formal Certainty to the Labyrinth
 of Interpretation

* د. عبد العزيز منسي

Dr. Abdelaziz MENCİ

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة (الجزائر)

Echahid Cheikh Larbi Tebessi University - Tebessa (Algeria)

abdelaziz.menci@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2026/06/02

تاريخ القبول: 2026/04/12

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

مَلِكُ حُجْرٍ بِلَجْجٍ

تروم هذه المكاشفة البحثية تتبع الانزياحات الإستيمولوجية العنيفة لمفهوم البنية عبر التوسل بمسافة نقدية بالانكفاء على مقارنة حفرية تأويلية، واتخاذ مدونة الزواوي بغورة كرهان ومختبر تطبيقي لمعينة وتفكيك السيرة الدراماتيكية لمفهوم البنية والتباساته التي رافقت انتقاله من اليقين الصوري إلى هشاشة الدلالة في العلوم الإنسانية، وتتحدد إشكالية الدراسة في مساءلة المفارقة الكبرى: كيف استحال مفهوم انبثق من طوباوية اليقين الرياضي والعلوم الصورية، إلى أداة تشرع الأبواب أمام هشاشة الدلالة وتنازع المعنى في حقل العلوم الإنسانية والفلسفة؟ ولتحقيق هذه الغاية؛ تعتمد الدراسة مقارنة أركيولوجية ترصد انتقال البنية من أنطولوجيا الثبات إلى هيرمينوطيقا الاختلاف، لتخلص إلى أن محاولة علمنة الخطاب الإنساني بنيويا قد أفضت إلى فضح لانهاية المعنى وتشظيه؛ إذ لم تعد البنية نسقا مغلقا لضبط الحقيقة، بل استحال أثر أنطولوجيا يغذي قلق التأويل، لتشكل هذه الهشاشة الدلالية ذاتها ذروة الخصوبة المعرفية في الخطاب النقدي المعاصر، وشرطا أصيلا لإنتاجية النص. الكلمات المفتاح: بنية، بنيوية، تحولات معرفية، الزواوي بغورة، علوم صورية، هشاشة الدلالة.

Abstract:

This critical inquiry seeks to trace the radical epistemological shifts inherent in the concept of "structure" by establishing a critical distance grounded in a hermeneutic-archaeological approach. It adopts Zouaoui BEGHOURA's corpus as a theoretical wager and an applied laboratory to examine and deconstruct the dramatic

* د. عبد العزيز منسي: abdelaziz.menci@univ-tebessa.dz

trajectory of this concept, alongside the ambiguities that accompanied its transition from formal certainty to semantic fragility within the human sciences. The central problematic of the study investigates a profound paradox: How did a concept, originally emerging from the utopia of mathematical certainty and formal sciences, metamorphose into an instrument that unveils semantic fragility and the contestation of meaning within the realms of philosophy and the human sciences?

To address this, the study employs an archaeological method to chart the structure's transition from an ontology of stasis to a hermeneutics of difference. The research concludes that the structuralist attempt to scientize human discourse paradoxically exposed the infinite and fragmented nature of meaning. Structure is no longer a closed system regulating truth; rather, it has become an ontological trace that fuels the anxiety of interpretation. Consequently, this very semantic fragility constitutes the pinnacle of cognitive fecundity in contemporary critical discourse and an inherent condition for textual productivity.

Keywords: Structure, Structuralism, Epistemological Shift, Zouaoui BEGHOURA, Formal Sciences, Semantic Fragility.



مقدمة:

لا تُكتب تواريخ المفاهيم الكبرى بوصفها سجلات هادئة لتراكم معرفي خطي، بل هي بالأحرى أركيولوجيا لزلزال إستيمولوجية عنيفة، وحفرٌ في طبقات التشكل والتحول التي ترسم جينالوجيا الفكر ذاته. ومن بين هذه المفاهيم التي لم تكن مجرد أدوات بقدر ما كانت أحداثاً مفاهيمية غيّرت وجه المعرفة، يبرز مفهوم "البنية" كشاهد ومحرك لواحدة من أعمق الدرامات الفكرية في العصر الحديث؛ فقد وُلد هذا المفهوم في طوباوية اليقين، وفي الفردوس المتعالي للرياضيات والنماذج الصلبة العلوم الصورية، حاملاً وعداً بنظام كوني صارم يمكن القبض عليه، وبحقيقة موضوعية تتجلى في شبكة علاقات داخلية مكنتية بذاتها، غير أن هجرة هذا المفهوم من عالمه الصوري النقي إلى حقول العلوم الطبيعية، ثم استقراره المأزوم في تربة العلوم الإنسانية القلقة، لم تكن رحلة توسع سلمي، بل كانت بمثابة سقوط عنيف من يقين النموذج إلى قلق التأويل. ففي كل محطة من محطات هذا الارتحال، كانت البنية تفقد شيئاً من صلابتها الأصلية وتتشرب من طبيعة الحقل الذي تحل فيه، لتتحول تدريجياً من أنطولوجيا الثبات إلى هيرمينوطيقا الاختلاف.

وعلى تخوم هذا السياق الإشكالي؛ تتوقع هذه المكاشفة البحثية لتقتني أثر هذا الانزياح المفهومي الدراماتيكي، متخذة من القراءة النقدية التفكيكية التي يقدمها المفكر الزواوي بغورة عدسة إستيمولوجية، لا لرصد التحولات بحسب، بل لمساءلة الصدوع المعرفية التي كشفت عنها تمفصلات هذه الرحلة؛ فمن خلال حفر بغورة في الأصول

والمسارات، تتجاوز السرديات التبسيطية التي قدمتها بعض الدراسات العربية للبنىوية، لنطرح الإشكالية في قلبها الفلسفي: كيف استحلال مفهومٍ تأسس على فكرة الكلية والضبط الذاتي إلى أداة للكشف عن لانهائية المعنى وتشظيه؟ وكيف تحولت الصرامة المنهجية التي كانت تهدف إلى إغلاق النص، إلى مفتاح يشرع أبوابه على هشاشة الدلالة وتيهيها اللامتناهي؟ إن تتبع هذه السيرة المفهومية هو تتبع لمفارقة الحداثة الكبرى؛ مفارقة الحلم بمنهج علمي صارم يصطدم بحقيقة الإنسان ككائن تأويلي بامتياز.

أولاً: نحو تأصيل إبستمولوجي: قراءة بغورة كدخل نقدي لتفكيك تاريخ البنىوية:

لا تُروى سيرة مفهوم البنية في الفكر المعاصر بوصفها تاريخاً خطياً لتوسع معرفي هادئ؛ بل تُروى -كما تكشف قراءة بغورة- بوصفها دراما إبستمولوجية حافلة بالانزياحات والتحويلات العميقة، ولم تكن البنية مجرد أداة محايدة انتقلت من حقل معرفي لآخر، بل كانت في كل محطات ترحالها تنتشر من خصائص الحقل الذي تحل فيه، فتتبدل طبيعتها وتتغير وظيفتها على نحو جذري.

وسيسعى هذا المحور إلى تتبع تفكيك قراءة بغورة لهذه الارتحالات الإبستمية، ومسار هذه التحويلات المتوترة، بدءاً من لحظة ولادتها في حضن العلوم الصورية، أين كانت وعداً باليقين والصلاية الموضوعية، مروراً بهجرتها القلقة إلى حقل العلوم الإنسانية الذي تحولت فيه إلى أداة لكشف هشاشة الدلالة وتعددتها، وصولاً إلى استقرارها المتأزم في رحاب اللغة والفلسفة؛ حيث أصبحت أثراً وأطولوجياً للنسق نفسه، وعليه؛ تنطلق قراءتنا من إشكالية محورية مدارها: ما الأسس التاريخية والمعرفية التي أعادت تشكيل مفهوم البنية وأخرجته من نماذج الصرامة نحو أفق تأويلي؟ ويتفرع عن ذلك تساؤل حول علاقة البنية بالأنساق الفكرية المتجاوزة للعلم والتقنية، من حيث كونها أداة ثقافية ومعرفية في آن واحد.

تعد مناقشة التحويلات الإبستمية العميقة التي مرت بها البنىوية خلال انتقالها من العلوم الصورية إلى حقل العلوم الإنسانية مغامرة انخرط فيها بغورة مدفوعاً برغبة ملحة في مناقشة الإشكاليات المرتبطة بالمنهج البنيوي ومحاولة توطين هذه المفاهيم في تربة غير تربتها التي نشأت فيها؛ حيث يقول في مقدمة كتابه: (المنهج البنيوي: بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات) "الآن وقد أصبحت البنىوية جزءاً من تاريخ المعرفة والفكر، ولم تعد تقليعة أو حدثاً إعلامياً، فإنه يمكن أن نقوم بدراسة علمية إبستمولوجية، ... تنطوي على أهمية منهجية ومعرفية أساسية، لأنها تمكننا بشكل مباشر أو غير مباشر من التعرف على الخلفية التاريخية والبنية المعرفية لهذا المنهج وبعض تطبيقاته والعقبات التي يشكو منها وآثار ذلك على التطورات التي عرفتها المعرفة العلمية والإنسانية بعد التحويلات التي لحقت بالبنىوية" (بغورة، 2001، صفحة 05)، وينطلق بغورة في ذلك من نقد الدراسات العربية للبنىوية بالقول: "الدراسات العربية المتعلقة بالبنىوية لم تهتم بالمنهج قدر اهتمامها بالبنىوية بشكل عام، فقد كانت دراسات أولية توضح المعالم الرئيسية للبنىوية وبعض المجالات التطبيقية من غير أن تبين الأسس المنهجية والعلمية التي تقوم عليها البنىوية، من هنا أردنا أن نخطو خطوة جديدة في دراسة البنىوية وذلك بمناقشة المنهج البنيوي" (بغورة، 2001، صفحة 08)، وبذلك؛ نجد أن بغورة يرسم إطاراً نقدياً دقيقاً لإعادة التفكير في موقع البنىوية ضمن حقل الدراسات العربية، مشدداً على أن معظم المقاربات السابقة اقتصرت على استعراض معالم البنىوية وتطبيقاتها، دون الغوص في أساسها المنهجي والعلمي الحقيقي.

وتكشف هذه الملاحظة عن وعي إستيمولوجي حاد بالمسافة بين التلقي السطحي للنظرية واستنطاق بنيتها المعرفية العميقة، فعوض الاكتفاء بالتعامل مع البنيوية كظاهرة فكرية عابرة أو موجة نقدية مؤقتة، يدعو بغورة إلى مساءلتها على مستوى المنهج بما هو نسق منظم للفهم، وشرط ضروري لتأسيس ممارسات نقدية أصيلة، ويأتي هذا التوجيه بمثابة تصحيح لمسار البحث البنيوي عربيا؛ حيث يتصدر سؤال الفهم النقدي: كيف تتكون البنيوية باعتبارها أداة للفهم العلمي وليست فقط خلقا لمعارف أو تطبيقات شكلية؟ فبغورة بهذا الطرح يشير إلى أن تجاوز المنحى الوصفي أو التجريبي يستوجب حفرا فلسفيا وإستيمولوجيا في صلب المنهج البنيوي ذاته: تفكيك شروطه، مساراته الإجرائية، وحدود فعاليته الحضرية.

ومن جانب آخر يمكن القول إن بغورة ينظر بعدسة تاريخية تعكس الحس النقدي الذي يسعى من خلاله إلى الانتقال من مستوى الوضوح المبسط للبنيوية إلى الكشف عن البعد الإستيمولوجي والإجرائي لمنهجها قصد تصويب الفهم السائد لها، بمعنى أن ينتقل من استقبال الطروحات استقبالا جامدا إلى اختبار أسئلتها في سياقها العربي، متتبعا مكامن القصور في القراءات السابقة وليفتح أفقا لتجاوز القراءة السائدة، وهذا ما يعد في منظورنا أن البحث في البنيوية مع بغورة ليس اجترارا لما قيل سلفا، أو تكرارا لإجابات جاهزة، إنما هو رحلة تأويلية تتجه منذ البداية إلى جذور الفهم بغية تأسيس أفق نقدي جديد يعيد التفكير في راهنية البنيوية وأسسها.

وإن المتأمل في قراءة بغورة يجد أنه يرصد مغادرة مفهوم البنية صرامته المنهجية ليصطدم بتعددية الدلالة الإنسانية وهشاشتها، كاشفا عن توترات داخلية وأزمات كامنة في قلب المشروع البنيوي (بغورة، 2001، صفحة 08)، وهذا ما يضعنا في قلب الإشكالية التأويلية التي تدور حول قابلية البنية للتأويل والافتتاح، وإبرازها كمفهوم بات يسهم في إعادة التفكير بأزمة الحداثة وبنيوية النقد، بين طموح العلمية وحدود التعدد والاختلاف في المعنى، وعليه؛ فإن تتبع المسار الإستيمولوجي لمفهوم البنية -كما يرسمه الزواوي بغورة- هو في جوهره "تتبع لسيرة مفهوم ولد في حضن الصرامة العلمية للعلوم الصورية والطبيعية، وانتقل إلى ورطة هي غموض الدلالة الإنسانية" (بغورة، 2001، صفحة 12)، فهذا المسار يمثل رحلة انزياح معرفي من صلاية النموذج، أين تكون البنية معادلة رياضية مغلقة ومكتفية بذاتها، إلى هشاشة الدلالة، أين تصبح البنية شبكة من العلاقات المفتوحة على تعدد القراءات ولا نهائية التأويل.

إن الإشكالية التي تفرض نفسها إلحاح هنا، والتي سنحاول تفكيكها من خلال قراءة بغورة، تتمحور حول كيفية حدوث هذا الانتقال المفارق؛ إذ يتساءل بغورة عن سبب انتقال وهجرة مفهوم تأسس على فكرة الكلية والتحويل والضبط الذاتي إلى حقل العلوم الإنسانية ليصبح أداة لفهم ما هو متغير ونسي ومحكوم بالذاتية والتاريخ، ويطرح بغورة خلال قراءته فرضية تحصر هذا الانتقال إما كمجرد توسيع لمجال التطبيق، أو كتحول جذري في طبيعة المفهوم ذاته، بما يكشف عن توتراته الداخلية وأزمته الكامنة (بغورة، 2001، صفحة 71)، وفي تقديرنا؛ لا تقدم قراءة بغورة هذا الانتقال بوصفه تطورا تاريخيا سلميا، بل ككشف عن صدع إستيمولوجي أصيل في قلب المشروع البنيوي؛ حيث يبدأ بغورة رحلته من حيث بدأت البنيوية نفسها؛ من حلم الصرامة المستعار في حقل العلوم الصورية والطبيعية.

ثانيا: أنطولوجيا اليقين: البنية في أفق العلوم الصورية وبيادر الانزياح الأولى:

يشير بغورة إلى أن "العلاقة التي تربط بين الرياضيات والفلسفة وبين الرياضيات والعلوم الإنسانية، ليست علاقة جديدة، فلقد بنى الفلاسفة ومنذ القدم أنظمتهم الفلسفية مستلهمين في ذلك الأنساق الرياضية، وأن العلاقة التي تربط بين الرياضيات والعلوم الاجتماعية ليست كذلك بجديدة، بل تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ... وفيما يخص موضوع بحثنا، فإن العلاقة بين البنيوية والرياضيات تتأكد أساسا، إذا ما نظرنا إلى فكرة البنية ذاتها، ففكرة البنية هي بالأساس مفهوم رياضي، تكون في إطار نظرية المجموعات، ومن الناحية التاريخية، فإننا نجد أن المفاهيم الأكثر قربا من البنيوية هي مفاهيم المجموعة والفرق أو الزمرة" (بغورة، 2001، صفحة 17)، فبغورة هنا يوضح الجذور الراسخة للعلاقة بين الرياضيات والفلسفة، ومدى رسوخ الإلهام المتبادل بين الفلاسفة والأنساق الرياضية منذ القدم، كما يؤكد وجود امتدادات لهذه العلاقة مع العلوم الإنسانية والاجتماعية، وجذور تمتد إلى بدايات تشكل هذه العلوم نفسها، غير أن التركيز الأساسي ينصب على فكرة البنية كحلقة وصل مركزية بين المنهج البنيوي والرياضيات؛ فمفهوم البنية الذي أصبح محورا في مقاربات البنيوية الحديثة، هو أصلا مفهوم رياضي نشأ في سياق نظرية المجموعات الرياضية، وهو الأمر الذي يمنح للطرح البنيوي مسوغاته العلمية والصرامة المفاهيمية عند انتقاله إلى حقول الفكر الإنساني.

ينقل هذا التأسيس النقاش حول البنيوية من كونه تيارا فكريا أو منهجا معزولا عن سياقاته العلمية، إلى مقارنة إستقولوجية تضع فكرة البنية ضمن سلسلة تطور المفاهيم الرياضية، وبخاصة مفاهيم المجموعة والزمرة، وهذا التأصيل الذي يقدمه بغورة هو ما يسهم في تعميق فهم الإشكاليات المرتبطة بالبنية؛ إذ يُبين أن حضور البنيوية في العلوم الإنسانية ليس انبثاقا اعتباطيا، بل محصلة لتاريخ طويل من استعارة الأدوات الرياضية في تأسيس المفاهيم الفلسفية والمعرفية. وعليه؛ "يصبح التأويل البنيوي في الدراسات النقدية المعاصرة استقرارا لمسار تراكمي يضبط الفهم بمنطق الصرامة الرياضية دون أن يفقد حسه التأويلي المتحول" (بغورة، 2001، صفحة 18)، وتضيء هذه الرؤية موقع المنهج البنيوي كجسر بين العلمي والفلسفي والإنساني، وتدفع النقاش لاستكشاف كيفية استثمار المفاهيم الرياضية المجردة كمفهوم المجموعة والزمرة في إعادة تأويل النصوص والأنساق الثقافية، مما يجعل سؤال الفهم متجها نحو تلمس شروط افتتاح دلالة البنية وتجاوزها الحدود التقليدية بين الحقول المعرفية.

وسرعان ما تبدأ هذه الصلاية في التصدع بمجرد عبورها إلى الضفة الأخرى إلى حقل العلوم الإنسانية، وبحل بغورة هذا العبور من خلال مقارنته لتجليات البنية في الفيزياء والبيولوجيا؛ حيث يلاحظ أن المفهوم "يبدأ في اكتساب خصائص جديدة، ففي الفيزياء، ترتبط البنية بمفهوم السببية التي هي صرح نظري، وليست معطى إمبريقيا، وهذه الصفة الأساسية للسببية في مفهومها الفيزيائي ترتبط مباشرة بمفهوم البنية في المجال البنيوي، فالبنية تشكل نوعا من العقلانية الباطنية للأشياء، فهي لا شعورية ولا تظهر على سطح الأشياء، فهي إذن ذات طبيعة عقلية" (بغورة، 2001، صفحة 20)، فهنا يلاحظ بغورة أن المفهوم يأخذ في التبدل ليكتسب خصائص نوعية جديدة، فمن خلال تداخل البنية والسببية في العلم الفيزيائي توفد جذوة تأويل الإشكالية المرتبطة بمفهوم البنية داخل البحث البنيوي؛ فالبنية الفيزيائية ليست صورة ظاهرة أو عنصرا معطى يمكن التقاطه بالعين المجردة، بل هي حقل من

العقلانية الباطنية التي لا تُدرك إلا عبر استدلال نظري معمق في محاولة القبض على ما لا يظهر مباشرة، والبحث في الطبقات التجريدية التي تحكم انتظام الظواهر الطبيعية خلف سطحها المرئي.

وفي هذا السياق، نرى أن إطار الفهم البنيوي يتسع ليتجاوز الصرامة العلمية باحتضانه المكونات المتوارية، وهذا ما نجده صدها يتردد عند زكريا إبراهيم الذي يقول إن: "البنية هي القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته، إنها نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا يتميز بثلاث خصائص: الكلية والتحولات والتنظيم الذاتي، وكل تحول في أحد عناصر البنية يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى، ... البنية ذات طبيعة لا شعورية رمزية تمكن من رد الكثير من المظاهر إلى أنساق تكشف عن معنى أضفاه الإنسان عليها عبر حياته، ومقارنة هذه الأنساق أو البنى ستكشف عن نظام صارم يحكمها" (إبراهيم، 1990، الصفحات 233-234)، وهذا ما يؤكد أن البنية ليست كيانا ماديا أو مجموعة عناصر منعزلة، بل نسق يتحكم في العلاقات الداخلية للنص، ولا يتسنى إدراكها إلا من خلال الوعي بالمنظومة العقلية المنظمة لهذه العلاقات، وعلى هذا الأساس؛ فالفهم البنيوي يقتضي تخطي ما هو ظاهر إلى اكتشاف ما هو غير ظاهر لإدراك دلالة البنية، فالبنية ليست شيئا أمامنا، بل هي نسق عقلي متوار يوجه انتظام الدلالة، ويكشف أن الفهم الحقيقي للبنية يقتضي استيعاب البعد العقلاني الكامن وراء الظواهر، لا التوقف عند معطياتها المباشرة، وهذا ما يحيل على بلورة الافتتاح التأويلي في مشروع بغورة حول سؤال المنهج البنيوي الذي يركز على مفهوم البنية ك مفهوم متحول يأخذ صورا متعددة ويكتسب خصائص جديدة مع كل انتقال إستيمولوجي، ما يعني أن مفهوم البنية كلما ابتعد عن جذوره الرياضية الصلبة، كلما ازدادت الحاجة إلى مقاربات تأويلية، حيث يصبح الفهم بحثا دائما عن العقل اللاشعوري المنظم للأشياء، وعن الروابط غير المعلنة التي لا تُرى على سطح الواقع بل تُستشف في باطنه المعرفي.

ويضيف بغورة أن مفهوم البنية في البيولوجيا يظهر "في اهتمامها بالعضو الحي، إذ تهتم كثيرا بقضية الضبط الذاتي وهذا من المميزات الأساسية للبنية، باعتبارها تقوم بضبط عناصرها بشكل ذاتي" (بغورة، 2001، صفحة 20)، وهذا ما يوضح أن بغورة يركز في قراءته على مفهوم الضبط الذاتي في البيولوجيا كإحدى السمات الجوهرية للبنية؛ حيث لم تعد البنية تُفهم كنسق جامد ثابت، بل كنظام حي ديناميكي قادر على تنظيم ذاته داخليا، وهذا التحول يوجه فهم بغورة للبنية من مجرد كونها نموذجا نظريا أو رياضيا إلى إدراك العمليات الحية المتغيرة التي تنشأ داخل النسق من تفاعلات داخلية مستمرة، وهذا ما يحيل بغورة إلى تساؤلات مهمة حول إمكانية حفاظ المنهج البنيوي على صرامته العلمية عند تعامله مع أنظمة ذات ضبط ذاتي وتقلبات معقدة، خاصة في الحقول الإنسانية مثل الأنثروبولوجيا والثقافة، أين تتداخل عوامل تاريخية واجتماعية لا تخضع إلى تحكم مركزي صارم (بغورة، 2001، صفحة 21)، ومن هنا تبدأ البنية في مغادرة عالم الأشكال الرياضية المجردة لتتقرب من عالم الظواهر المنظمة ذاتيا في حقول العلوم الإنسانية، وهذا ما يؤدي ببغورة إلى الوصول إلى نتيجة مؤداها أن "علاقة البنيوية منها نظرية بالعلوم الطبيعية والتقنية تظهر كعلاقة أساسية تبين كيفية استفادتها من المفاهيم الأساسية لهذه العلوم، إلا أن هذه العلاقة لا تكتمل من دون الإشارة إلى أصلين أساسيين، العلوم الإنسانية والفلسفة" (بغورة، 2001، صفحة 24).

ثالثا: من الكلّ الرياضي إلى الكلّ المُدرَك: حلم العلمنة يصطدم بهشاشة الدلالة الإنسانية:

يعد الإقرار بتأثير العلوم الطبيعية والتقنية على تشكل البنيوية هو إقرار لا يمكن تجاوزه، ذلك أن المفاهيم الأساسية التي استعارتها البنيوية قد ترسخت أولا ضمن حقل الفيزياء والرياضيات، ثم أعيد توطينها في مجال الفكر الإنساني، فالتحولات التي مست مفهوم البنية -كما يُظهر بغورة- ليست انتقالاتا آليا لمفاهيم علمية من حقل إلى حقل، بل هي بمثابة الهزة الإستيمية والانزياح المفهومي الذي يسهم في تطور المعارف الإنسانية ويؤثر على تاريخ الأفكار بشكل بارز، ويصف بغورة هذا الانزياح في مفهوم البنية وما أعقبه من هزة إستيمية كبرى تحدث عند الانتقال إلى الإنسان نفسه من خلال استعراضه لتأثير مدرسة الجشطالت في علم النفس، كأحد "الروافد الأساسية للبنيوية، خاصة على المستوى المنهجي، فلقد ركزت على مفهوم إدراك الكل ورفضت كل نزعة ذرية" (بغورة، 2001، صفحة 29)، وهذا ما يعيدنا إلى المقولة المركزية في فكر الجشطالت (الكل يختلف عن مجموع أجزائه)، وبغورة بذلك يؤكد أن هذا التصور هو بمثابة الجسر الذي عبرت عليه البنية من التحليل الصوري إلى رحاب الإدراك الإنساني، لكن هذا العبور لم يكن بلا ثمن؛ "فالكل في الإدراك الإنساني ليس كلا رياضيا. إنه كل محكوم بالإدراك، والشعور، والذاكرة، والسياق" (بغورة، 2001، صفحة 29).

ويعد هذا التحول السابق هو ممكن هشاشة الدلالة؛ فالبنية عندما تطبق على الظواهر الإنسانية كالنص الأدبي لا تصبح قادرة على تقديم إجابات نهائية ومغلقة، فهي -بدلا من ذلك- تفتح أبوابا لأسئلة لا تنتهي؛ حيث يرى بغورة أن "البنيوية حاولت فرض نظام صارم على الخطاب الثقافي الأدبي، لكنها في واقع الحال كشفت عن هشاشة هذا النظام، وعن افتتاح الخطاب على تفسيرات متعددة ومتناقضة، مما يعني أن البنيوية لا تؤسس علما بالمعنى الجامد، بل كونا من التعدد والتشظي والتاريخية" (بغورة، 2001، صفحة 30)، وهذا ما مؤداه أن البنيوية في سعيها لعلمة الخطاب الإنساني انتهت إلى الكشف عن حقيقته اللاعلمية، وعن كونه خطابا متعدد ومتشظيا ومفتوحا على تعدد التأويلات، وعليه؛ فالبنية التي كان يراد لها أن تكون أداة لضبط المعنى، أصبحت أداة للكشف عن لانهائية المعنى.

وبناء على ما سبق؛ نستشف أن بغورة قد سلط الضوء على مفارقة مركزية؛ فكلمة اقتربت البنيوية من تحقيق حلمها في علمنة العلوم الإنسانية، كانت في الواقع تبتعد عن نموذجها الصوري الأصلي، وأن الصرامة التي جلبتها معها لم تكن صرامة رياضية، بل كانت صرامة من نوع جديد، صرامة في تتبع العلاقات والتحولات، لكن هذه العلاقات ليست علاقات منطقية خالصة، بل هي علاقات دلالية مشبعة بالرمز والثقافة والتاريخ (بغورة، 2001، صفحة 31)، فهي علاقات لا تكشف عند مقاربتها عن قوانين رياضية علمية تحكم الخطاب الإنساني، إنما تكشف عن منطق نسقي داخلي يتشكل عبر شبكة من التوترات الدلالية، وهذه التوترات الدلالية هي التي تؤكد هشاشة الدلالة، فالبنية لا تقدم لنا يقينيات نطمئن إليها، إنما تدخلنا في قلق التساؤل حينما نتفتح على تعدد المعنى.

رابعا: مفارقة المنهج: حين تصبح هشاشة الدلالة مصدر خصوبة البنية:

إن اللافت في تحليل بغورة هو عدم اكتفائه برصد هذا التحول، بل بتأصيله ضمن تاريخ إستيمتي أوسع، فهو يرى أن هذا الانتقال لم يكن مجرد خطأ في التطبيق، بل كان ضرورة داخلية فرضها موضوع الدراسة نفسه؛ فالظاهرة الإنسانية -بطبيعتها- ترفض الاختزال في نموذج صوري مغلق، فهي ظاهرة دالة والمعنى فيها ليس معطى ثابتا، بل هو

نتاج عملية تفاعل ديناميكي مستمر (بغورة، 2001، صفحة 31)، وهذا ما يعبر عنه الطرح الذي ذهب فيه بول ريكور في أن الصراع التأويلي ليس مرضا يصيب الفهم، بل هو طبيعته الأصلية (ريكور، 2005، صفحة 88)، ويمكننا القول -استنادا إلى تحليل بغورة- إن البنيوية في رحلتها من العلوم الصورية إلى الإنسانية، انتقلت من محاولة القضاء على صراع التأويل بتعبير ريكور إلى الانخراط فيه والكشف عن قوانينه الداخلية.

وهكذا، يبدو لنا أن بغورة -من خلال هذا التحليل التاريخي الإبستي- يقوم بعملية تفكيك هادئة لادعاءات العلمية المطلقة للبنيوية، فهو لا ينفي عنها قيمتها المنهجية، بل يعيد تحديد هذه القيمة، فقيمة البنيوية لا تكمن في قدرتها على تقديم إجابات نهائية أو قطعية كما تفعل النماذج الصورية، بل في قدرتها على طرح أسئلة دقيقة، وفي قدرتها على كشف نظام أو نسق خفي يتأسس على مجموع العلاقات بين الأجزاء، لكن هذا النظام ليس نظاما رياضيا، بل هو نظام دلالي؛ أي إنه نظام مفتوح على التأويل. وبهذا المعنى؛ لا تعد هشاشة الدلالة نقطة ضعف في البنية، بل هي -على نحو مفارق- مصدر قوتها وخصوبتها في حقل العلوم الإنسانية، وهذا ما يعبر عنه عبد السلام المسدي حينما أكد على "التباس أمر البنيوية في روابطها مع مناهج النقد الحديث وتياراته الفكرية، ... وكانت البنيوية منبعها خصيبا للرؤى المولعة في التجريد الشكلي إلى حد التوصل بأساليب المنطق الصوري أحيانا" (المسدي، 1982، صفحة 115)، وهذا معناه أن البنيوية، حين دخلت معترك النقد الأدبي، لم تكن مجرد منهج، بل كانت مشروعا لإعادة التفكير في طبيعة اللغة والأدب والمعنى.

في نهاية المطاف؛ فإن رحلة البنية من صلاية النموذج الصوري إلى هشاشة الدلالة الإنسانية -كما يرونها بغورة- هي قصة تحول اليقين العلمي إلى معترك مغامرة التأويل، وخلال تتبع هذا المسار؛ لا يقدم لنا بغورة تاريخا لمفهوم البنية فحسب، بل يقدم لنا مدخلا لفهم الأزمة النقدية التي هي أزمة التوتر الدائم بين الرغبة في الموضوعية بين الحلم بالمنهج الصارم وقدر القراءة اللانهائية.

خامسا: البنية بوصفها أثرا لغويا وفلسفيا: أنطولوجيا النسق وتنازع المعنى:

إن كان عبور البنية من عالم النماذج الصورية إلى فضاء الظواهر الإنسانية قد أحدث فيها شرخا إبستيميا أوليا؛ فإن لحظة غمرها في محيط اللغة والفلسفة تمثل لحظة تحولها الأنطولوجي الأعمق والأخطر، فلم تعد البنية مجرد أداة تحليلية منزوعة الدسم الدلالي، بل استحالت إلى أثر لغوي يؤسس لاستقلالية النسق عن أي مرجع خارجي، وأثر فلسفي يعيد طرح الأسئلة الكبرى حول طبيعة النظام، والواقع، والمعنى، والذات، وهي اللحظة التي تطرح إشكالية محورية تتجاوز حدود المنهجية لتلامس صميم فلسفة المعرفة؛ فهل ما زالت البنية، -بعد استقرارها في هذا الملجأ اللغوي-الفلسفي- تمثل أداة لضبط المعنى وتحصينه ضد فوضى التأويل، أم أنها -على نحو مفارق- أصبحت هي نفسها الآلية التي تشرع الأبواب أمام تنازع المعنى وتكاثره اللانهائي؟

في تقديرنا؛ لا يقدم بغورة في كتابه إجابة بسيطة بقدر ما يقودنا عبر حفرية معرفية دقيقة لسبين لنا أن أنطولوجيا النسق، التي كانت حلم البنيوية لتحقيق العلمية، هي ذاتها شرط إمكان تنازع المعنى، الذي شكل مأزقها وتحديها الأكبر.

يبدأ بغورة تشريح هذه اللحظة المفصلية بالعودة إلى المنبع الأول (فريدناند دي سوسير) الذي يمثل في تاريخ البنيوية ما يمثله ديكرت في تاريخ فلسفة الذات؛ إذ يشدد بغورة على أن دي سوسير لم يستعمل كلمة بنية، إنما استعمل كلمة نسق. (بغورة، 2001، صفحة 70)، وهو تمييز دقيق يحمل في طياته -كما يرى بغورة- مفتاح فهم الثورة البنيوية بأكملها؛ فالنسق السوسيري هو الذي سمح للبنية لاحقاً بعد الأنتولوجي التأسيسي.

يغوص بغورة في تحليل الثنائيات السوسيرية الشهيرة كعمليات بتر إستيمولوجي عنيفة، هدفت إلى خلق موضوع علمي جديد ومستقل هو اللغة. يقول بغورة: "إن الفصل الحاسم بين التصورات الذهنية للغة والتطبيق العملي للكلام هو الذي ساعد على إضفاء صفة النظام التجريدي المترابط على المجموعة الأولى" (بغورة، 2001، صفحة 36)، فهذا الفصل بين اللغة والكلام لا يعد مجرد تمييز إجرائي فحسب، إنما هو -في حقيقته- عزل أنتولوجي يؤسس اللغة كنسق اجتماعي، كلي، ولا شعوري، مقابل الكلام الفردي، العرضي والواعي، فقد أصبح النسق هو الواقع الجوهرية، وما عداه مجرد مظهرات سطحية.

وتتعرّض هذه الأنتولوجيا الجديدة مع المبدأ الثاني: إعلاء شأن الدراسة التزامنية على حساب الدراسة التعاقبية؛ حيث يرى بغورة أن هذا المبدأ هو الذي "ميز اللسانيات البنيوية، وجعل منها نموذجاً للعلوم الإنسانية، لأن هذا المبدأ يحرر العلامة من ثقل تاريخها، ومن البحث عن أصولها ومعانيها الأصلية" (بغورة، 2001، صفحة 37)، فالمعنى -في المنظور التزامني- ليس كامناً في ماضي الكلمة، بل في موقعها الحالي داخل شبكة العلاقات التي تربطها ببقية الكلمات، فهي لحظة تجميد للزمن، وإعلان صريح بأن بنية النسق هي بنية آتية، لا تاريخية، لكن الضربة القاصمة التي أسست لهذه الأنتولوجيا بشكل نهائي، هي مبدأ اعتبارية العلامة، وهو المبدأ الذي يقطع كل صلة طبيعية بين الدال والمدلول، هو الذي يقطع، بالتبعية، كل صلة ضرورية بين اللغة والعالم الخارجي، فلم تعد اللغة مرآة للواقع، بقدر ما أصبحت نظاماً مغلقاً من العلامات التي تستمد قيمتها من اختلافها عن بعضها البعض، وكما يقول صلاح فضل في شرحه لهذه النقطة: "إن قيمة أي عنصر لغوي لا تتحدد إيجابياً بمحتواه، بل سلبياً بعلاقاته مع العناصر الأخرى في النظام" (فضل، 2002، صفحة 55)، وهذا الطرح هو ما يؤكد أن هذا النسق المغلق والاعتباطي والتزامني هو ما نعيه بأنتولوجيا النسق، فقد "أصبح النسق اللغوي هو الواقع الأول الذي يجب دراسته، كواقع قائم بذاته" (بغورة، 2001، صفحة 33)، ومن اللافت في قراءة بغورة أنه يربط هذه اللحظة السوسيرية مباشرة بتطور فكرة البنية ذاتها؛ فالبنيوية -في جوهرها- ليست سوى تعميم لهذا النموذج الأنتولوجي للغة على كل حقول الثقافة الإنسانية.

وهنا تكمن المفارقة الكبرى التي يكشفها التحليل؛ فإن هذه الأنتولوجيا التي تأسست بحثاً عن اليقين العلمي، تحمل في أحشائها بذور تنازع المعنى، وعلى الرغم من أن المعنى لا يُستمد من مرجع ثابت خارج اللغة، إنما من لعبة الاختلافات اللانهائية داخلها؛ فهذا يعني أن المعنى ليس جوهرًا ثابتًا يمكن القبض عليه؛ لأنه أثر مؤجل على الدوام، ويتولد ويختفي في شبكة العلاقات، وهذا ما سيطوره جاك دريدا لاحقاً تحت مفهوم الاختلاف؛ حيث "المعنى لا يكتمل أبداً، ... هو دائماً مؤجل ومختلف" (دريدا، 2019، صفحة 27).

إن النسق الذي كان يراد له أن يكون حصناً للمعنى ضد فوضى التأويل، يصبح هو نفسه ميدان اللعب اللانهائي للدلالات، ويمكننا أن نرى في هذا صدى لما طرحه نصر حامد أبو زيد حول طبيعة النص، الذي رأى أن

النص -بمجرد إنتاجه- "ينفصل عن منتجه وعن سياقه الأول، ليدخل في شبكة لا نهائية من العلاقات مع نصوص أخرى، ومع قراء متعددين، مما يجعله منتجا للمعنى لا خازنا له" (أبو زيد، 1990، صفحة 112)، وهذا يعني أن البنيوية وفرت الأدوات النظرية للكشف عن هذه الإنتاجية الدلالية للنص.

وإذا كانت اللسانيات قد منحت البنية جسدها الأنطولوجي كنسق، فإن الفلسفة -كما يستعرضها بغورة- هي التي منحتها روحها الميتافيزيقية، وأن العلاقة بين البنيوية والفلسفة الفرنسية ليست علاقة تواصل، إنما هي -كما يؤكد بغورة مرارا- علاقة قطيعة جذرية، ويقول بغورة في ذلك: "لقد أدركنا فجأة ودون أسباب واضحة، أننا قد بعدنا إلى حد كبير عن الجيل الذي سبقنا جيل سارتر وميرلو بونتي" (بغورة، 2001، صفحة 53)، فالبنيوية -بذلك- كانت ثورة شاملة ضد ما أسماه بغورة ولع الفلسفة الفرنسية بالذاتية، وبالتحديد بالكوجيتو الديكارتي، وأنها كانت انقلابا على فلسفات الوعي، والحرية، والتاريخ، والقصدية، التي مثلها الوجوديون، لكن هذه الثورة -كما يكشف تحليل بغورة- لم تكن مجرد فعل هدم، بل كانت مشروع بناء لفلسفة بديلة.

في هذا السياق؛ أصبحت البنية معادلا أنطولوجيا لمقولات العقل الكاظمية، فكما أن مقولات كانط هي شروط قبلية لتنظيم التجربة الحسية؛ فإن البنى هي -في منظور ليفي ستروس- شروط لاواعية لتنظيم التجربة الثقافية، ويرى بغورة هنا أننا في البنيوية "إزاء لاشعور كانطي، لا شعور من مستوى المقولات وتآلفها، إذ إننا بصدد منظومة من مستوى المقولات ولكن بدون إحالة إلى ذات مفكرة" (بغورة، 2001، صفحة 32)، وهذا اللاشعور البنيوي هو بنية عقلية، صورية، وكونية، تعمل خلف ظهور الفاعلين الاجتماعيين، وتنظم ممارساتهم دون وعي منهم، وهذا ما يراه مفكرون مثل محمد أركون تجاوزوا ضروريا للذاتية التاريخية التي هيمنت على الفكر الغربي، وفتحا لأفق التفكير في الشروط الموضوعية للفعل الإنساني. (أركون، 1996، صفحة 215).

لكن هذا التجاوز للذات لم يؤدّ إلى استقرار الموضوع في مملكة اليقين، بل إلى العكس تماما؛ فالبنية -بوصفها أثرا فلسفيا- قد ورثت من الفلسفة الألمانية (كانط وهيجل) مفهوم الكلية، لكنها -كما يلمح بغورة- أفرغته من محتواه التاريخي والجدلي، فالكل البنيوي ليس كلا ديناميكيا يتطور عبر صيرورة الزمن، لأنه كل تزامني، تتحدد فيه قيمة كل عنصر بعلاقته ببقية العناصر في لحظة معينة معطاة، وهذا الكل الساكن الذي لا يحيل إلا إلى ذاته هو ما يفتح الباب مجددا على مصراعيه أمام تنازع المعنى وتعدد التأويلات التي جاءت مع فكرة موت الإنسان عند فوكو، والتي رأى أنها "الأفق الأخير للفكر البنيوي" (فوكو، 1990، صفحة 412)، وهو في الوقت نفسه إعلان عن ولادة القارئ الذي ينتج المعنى أكثر من استهلاكه له، وهي الفكرة التي طورها رولان بارت إلى أقصاها.

وعليه؛ نرى أن بغورة -من خلال حفريات المعرفية في أصول البنيوية اللسانية والفلسفية- يمارس عل المفهوم عملية تفكيك هادئة ورصينة، ويكشف أن البنية -في سعيها المحموم نحو الموضوعية والعلمية- قد تبنت مبادئ (اعتباطية العلامة، استقلالية النسق، موت الذات)، وهي المبادئ التي قادتها -على نحو حتمي- إلى أن تكون هي نفسها أكبر منتج للتعددية الدلالية وتنازع التأويلات، فهي تكشف عن نظام الاختلاف. وبهذا؛ تتحول البنية من أداة لإغلاق باب التأويل، إلى دعوة مفتوحة لممارسته، ولكن بشكل مختلف، عبر عدم البحث قصديا المؤلف أو المعنى الأصلي، بل عبر استكشاف لعبة الدال اللانهائية داخل النسق.

وقد يجوز لنا القول هنا إن البنية بانتقالها من صلاية النموذج السوري مرورا بهشاشة الدلالة في العلوم الإنسانية، وصولا إلى أطولوجيا النسق اللغوي وتنازعات المعنى الفلسفي، تبدو في قراءة الزواوي بغورة- كمفهوم يعيش على توتراته الداخلية ومفارقاته العميقة.

خاتمة:

في نهاية هذا المسار الأركيولوجي؛ قد لا نصل إلى جنازة مفهوم بقدر ما نتوصل إلى تشریح أثره الطيفي الذي لا يزال يسكن خطابنا النقدي، فرحلة "البنية" من طمأنينة النموذج السوري إلى قلق الدلالة الإنسانية، كما تفككها قراءة الزواوي بغورة، ليست مجرد سرد لتاريخ فكري، بل هي شهادة على محنة المعرفة ذاتها في مواجهة الكائن البشري.

لقد كانت هذه الرحلة سقوطا حتميا، سقوطا من فردوس اليقين الرياضي إلى حجيم التأويل اللامتناهي، ولم يكن هذا السقوط فشلا، بل كان كشفا عن حقيقة أعمق.

المفارقة الجذرية التي يضيئها هذا البحث هي أن البنيوية، في ذروة طموحها الإبيستيمولوجي لفرض نظام علمي صارم على فوضى الخطاب، حكمت على نفسها بأن تكون الشاهد الأكبر على استحالة هذا النظام؛ فقد أرادت أن تكون قانونا يضبط المعنى، فإذا بها تصبح الأداة التي تفضح غيابه الأصلي وتشرع لانهايته.

لم تكن الصرامة التي جلبتها البنية معها صرامة الإجابات، بل صرامة الأسئلة؛ إذ علمتنا كيف نقرأ اللاوعي الكامن في الأنساق، وكيف نرى الشبكات الخفية التي تنظم ليس فقط ما يقال، بل ما لا يمكن قوله، عليه؛ فالبنية لم تمت بقدر ما تحولت من هيئتها المتعالية الصلبة لتسكن كشبح في قلب اللغة، كأثر يدل على نظام دائم التشكل والتفكك.

ومن خلال ما تم تخطيطه من نتائج سابقة قد يجوز لنا القول إن البنية قد تركت لنا إرثا قلقا؛ إذ لم تعد محمّتنا البحث عن البنية الخفية للنص، بل التفتت إلى أصداء انهيارها، وتتبع التصدعات التي تكشف عن هشاشة الدلالة لا كنقطة ضعف، بل كشرط الوجود الإنساني نفسه. إنها قصة الحلم باليقين وهو يتحطم على صخرة الكائن البشري بوصفه شرخا في نظام الكون. شرخ لا يمكن ردمه، بل -بفضل مغامرة البنية- يمكن أن نتأمل في خرائط متاهته اللانهائية.

قائمة المراجع:

- الزواوي بغورة. (2001). المنهج البنيوي؛ بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات (المجلد ط1). عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.
- بول ريكور. (2005). صراع التأويلات؛ دراسات هيرمينوطيقية (المجلد ط1). (منذر عياشي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- جاك دريدا. (2019). هوامش الفلسفة (المجلد ط1). (منى طلبة، المترجمون) بيروت، لبنان: دار التنوير.
- زكريا إبراهيم. (1990). مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية (المجلد د.ط.). القاهرة، مصر: مكتبة مصر.

- صلاح فضل. (2002). مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته (المجلد ط1). القاهرة، مصر: ميريت للنشر والتوزيع.
- عبد السلام المسدي. (1982). الأسلوبية والأسلوب (المجلد ط3). طرابلس، ليبيا: الدار العربية للكتاب.
- محمد أركون. (1996). الفكر الإسلامي: قراءة علمية (المجلد ط2). (هاشم صالح، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.
- ميشيل فوكو. (1990). الكلمات والأشياء (المجلد ط1). (مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودي، جورج أبي صالح، وكمال أسطفان، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.
- ميشيل فوكو. (1990). الكلمات والأشياء (المجلد دط). (مطاع صفدي، سالم يفوت، بدر الدين عرودي، جورج أبي صالح، وكمال أسطفان، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.
- نصر حامد أبو زيد. (1990). مفهوم النص (المجلد دط). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.